

أُكْتُبُ مِنْ دُونِ رَقِيبٍ فِي رَأْسِكَ، وَدَعَهُمْ يَمْرُقُوا

لقمان ديركي

في تجربتي مع الرقابة تعلّمتُ جملةً قصيرةً مفادها أن لا حول ولا قوّة للرقيب في ما يتخذُه من قرارات. ولقد بحثتُ دائماً عن الرقيب الشجاع الذي يَمْنَعُ بشجاعة ويَسْمَحُ بشجاعة. ولكنّ أُنَى له ذلك وهو موظّف خائف على راتبه، ويبحث دائماً عن النصّ الذي لا طعم له ولا لَوْنٌ ولا رائحة؛ وهذا الكلام يَنْطَبِقُ تماماً على رقابة اتّحاد الكتّاب العرب للنصوص الأدبية والفكرية، التي تُحوّل إلى الاتّحاد من وزارة الإعلام.

وقد حدث أن مُنِعَ كتابي الشعريّ الأول **ضيوف يثيرون الغبار**، فقدّمته مرّةً أخرى بعنوان **طريق عودة منسفي**، فتمّت الموافقة عليه. ثم أعدتُ له العنوانَ الأصليّ، فمُنِعَ من التداول. وبعد فترة سُمِحَ بتداوله... في دورة رقابية سرّالية تؤكّد مزاجيّة الرقيب وعدم التزامه ضوابطاً محدّدة في الرقابة.

وقد كانت لنا تجربةٌ أديبّةٌ غيرُ خاضعة للرقابة في بداية التسعينيات، عندما أسّسنا مجلة ألف التي كانت تُطبع خارج سوريا وتُدخّل إليها كأيّ مطبوعة خارجيّة. وبعد توقّف مجلة ألف حاولنا نقلَ هذه «الحرية» إلى المطبوعات الثقافيّة السوريّة، ولكنّ من دون جدوى بسبب أنّ القائمين على الصفحات الثقافيّة ملكيّون أكثر من الملك: فهم خائفون على مناصبهم، وهذا يستوجب منهم أن يَنشُرُوا ما لا يثير أيّ شيء. والنتيجة: صفحات ممّلة وغيرُ مقروءة.

في عام ١٩٩١ طلبتُ مني مجلة الناقد المشاركة في ملفّ بعنوان «اتّحادات الكتّاب... الوجه الثقافيّ للقمع السياسيّ»، فشاركته بمقالة بعنوان «مؤسّساتُ تصنيع الأدباء». فما كان من أحد الكتّاب الرقباء إلا أن اتّهمني على صفحات جريدة الاتّحاد (**الأسبوع الأدبيّ**) بالعمالة لمخابرات خارج القطر، وبانعدام الحسّ الوطنيّ، وبالشدوذ الجنسيّ. طبعاً لم أردّ على هذا الكلام، ولكنّي ذكرته للمقارنة: فلو كانت هذه الاتّهامات موجّهةً إلى أحد المتنفّذين في المؤسّسات الثقافيّة، هل كانت ستجد طريقها إلى النشر؟! إذاً، مرّةً أخرى، الأمر يتعلّق بمزاجيّة الرقيب ويتحكّم الفاسدين وغير الموهوبين بالبيّات النشر.

وتأكّد هذا الكلام عندما قمتُ مع علي فرزات بتأسيس مجلة **الدومري**، وكنتُ أميناً للتحريير. وقد نشرنا في هذه الجريدة غير المراقبة كلّ ما يَحْطُرُ في بال المواطن السوريّ من أسئلة حول التعسّف والقمع والفساد، ولم يعترض طريقنا أحدٌ لكوننا أصلاً لم نَكُنْ خاضعين لرقابةٍ من أيّ نوع كان. ولكنّ المضايقات بدأت عندما راح بعضُ المسؤولين يخافون على أسمائهم ومناصبهم، فشرعوا في تضيق الخناق على الجريدة، وكنتُ وقتها قد أصبحتُ خارجها. وفي مقابلة معي أجراها تلفزيون الـ BBC البريطانيّ قلتُ إنّ الحرية في الكتابة هي من صنّع الكاتب نفسه، وليست هديةً يقدّمها له الرقيب. وكذلك قلتُ لقناة الجزيرة القطريّة إنّّه قد تأكّد لي أنّ الكاتب هو الذي يجمّع في رأسه الرقباء قبل أن يكتُب:

فليطردهم إذن ويكتب. وقد فوجئتُ مرةً بزاوية للكاتب نبيل صالح في جريدة تشرين يطالب فيها بتغيير النشيد السوري: فوجئتُ أنها نُشرت، وأشعرني ذلك بالراحة لأنني وجدتُ كاتبًا طردَ من رأسه الرقيباء وكتب. «أكتب... ودعهم يمزقوا أو يفسحوا»: هذا هو شعاري.

غير أن أسوأ الكتاب «الأحرار» هم الذين يبدأون مقالاتهم أو مسرحياتهم بمديح للسلطة ولواقفها الوطنية، ثم ينتقلون إلى الانتقاد، وينهون المقالة أو المسرحية بميلودراما وطنية فيها ديباجات عن حب الوطن - وكأن حب الوطن ينتفي بانتقاد ظواهر الفساد والانتهازية والتملق! فكيف يمكنك أن تكون كاتبًا حرًا وأنت تبدأ بالتملق وتنتهي بالتملق؟!

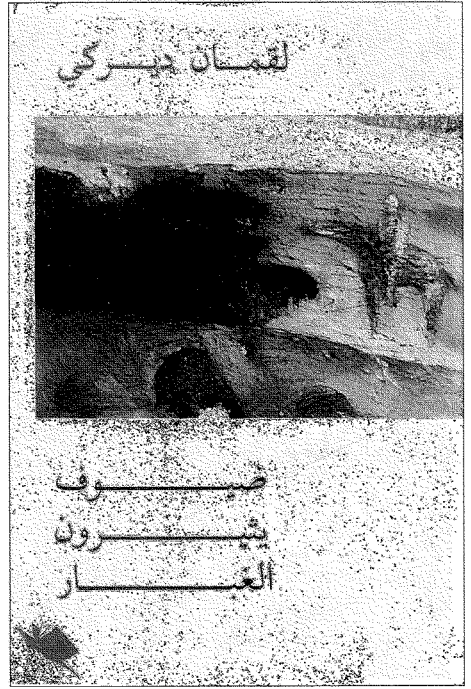
وبعد أن صدرت **الدومري** بدأت أعدادها تُنفذ خلال ربع ساعة، وبان عطشُ القارئ/ المواطن إلى الحقيقة، حتى جاءنا رئيس تحرير من عالم الغيب، وهو شقيق علي فرزات صاحب الجريدة، وبدأ بتغيير كل ما صنعناه كي يرضي ذاته. فسقطت الجريدة في مستنقع العاديّة.

و شاء الحظ أن أكون كاتبًا لأول مسرحية ساخرة وحرّة، وهي مسرحية **سُمح في سوريا**. واستطعنا، أنا ومخرجها ومنتجها، أن نقدّم عملاً مسرحيًا سياسيًا ساخرًا وحادًا وجريئًا، من دون أية إشارة تملّقيّة، ومن دون أية ميلودراما وطنية. ولم تُمنع المسرحية. وكان شرطي أن لا يتمّ تبديل ما كتبت. فأشرفتُ على العمل درامياً، خوفاً من أن يقوم أحد ما بالجامعات الرخيصة للسلطة.

ولكنّي اكتشفتُ أنّ منتج المسرحية كان على درجة كبيرة من الإطلاع والثقافة، وكان يملك رأياً نفسه، فنحجتُ تجربتنا من وجهة نظرنا كأفراد يحبون أن يطوروا بلادهم ويشجعوا إنسان هذه البلاد على التخلص من السمات الانتهازية والوصولية و... الخوف.

وأخراً ما حرّرتُ أنّ صحيفة **يديعوت أحرونوت** الإسرائيلية كتبتُ عن مسرحيتي **سُمح في سوريا**، ولكنّ ما ذكرته من أحداث كان غير صحيح. فأجدني الآن مضطراً إلى الردّ، وقد تخوّف الكثيرون من ذلك، ولكنّي أجده أمراً طبيعياً أن أدافع عن نفسي في دورية عربية وأمام القراء العرب، لأنّ المقالة نُشرت على الموقع العربيّ للصحيفة الإسرائيليّة وفي صفحة «مختارات من الصحف الإسرائيليّة» في جريدة **القدس العربيّ**. وما ذكر من أحداث عن مسرحيتي يصمها بالتملق للسلطة، وهذا ما لا أرضيه. وسأكتب.

دمشق



كتابي الشعريّ الأول مُنح، ثم سُمح به تحت عنوان آخر، ثم مُنح بعنوانه الأصليّ

لقمان ديركي

شاعر وممثل وسيناريست سوريّ. من أعماله الشعريّة **ضيوف يثيرون الغبار**، وكما لو أنك ميت، ووحوش العاطفة. كاتب سيناريو مسلسل «محاولات»، من إخراج غسان سليمان، ومسلسل «شو حكينا»، من إخراج عماد سيف، ومعدّ سيناريو ستة أفلام عن البيئة. مؤلّف مسرحية **رؤوس أقلام** من إخراج المخرج الكويتي عبد العزيز منصور، ومؤلّف مسرحية **سُمح في سورية**. أحد مؤسسي جريدة **الدومري** المستقلة الساخرة في دمشق مع صاحبها علي فرزات، وأمين تحريرها سابقاً.